الفصل الثالث

الدعوة فى ظل الدولة الأموية

هناك رأي بأن الأمويين ليسوا نماذج مبرأة ، ولا مُعجَبة ، للرسالة الإسلامية حاشا عمر بن عبد العزيز رضي اللّه عنه ، الذي لُقِبَ بالخليفة الخامس ، كأنه بقية الراشدين ...

ونحن نرى أن هذا القول صحيح من جانب واحد ، هو المتصل بأشخاص الحاكمين ، فقد كانوا أقل تُقي ، ومعرفة ، وتبتلاً إلى اللّه ، من الخلفاء الأربعة الكبار ، أما غاية الحكم ، ونشاطه ، وشعاره ، فلا خلاف بين الدولتين ، إذ أن القادة الجدد مضوا بالإسلام في طريقه ، ما رفعوا إلا رايته ، ولا ارتضوا إلا كتابه ..

وقد قاتَلوا في الميادين نفسها التي قاتلت فيها الخلافة السابقة ، وعمل معهم جند كثيف من أهل التجرد والإخلاص الذين يبتغون الآخرة ، ولا تهمهم مناصبهم في الدنيا ..

وفي ظل الأمويين أخذت الأجهزة الدوّارة في الكيان الإسلامي تعمل عملها في تنشئة أجيال مسلمة لحماً ودماً ، وهو عمل لا ينكره إلا قاصر ، فإن سقوط الروم والفُرس أعقبه وجود كتل من الشباب والأولاد والأحفاد ، تلقفهم أتباع محمد ﷺ بالتعليم المنظم والتهذيب الذكي ، فلم تمض خمسون سنة على انديا ح موجة الفتح حتى كانت المدن والقُرى مليئة بالمساجد والمدارس ، وحتى كانت شعائر الإسلام بارزة ، وتقاليده مُوَطّده ، وأحكامه مُطبّقة ، في الشام والعراق ومصر واليمن وأقطار أُخرى كثيرة .

بل إن غير العرب سبق العرب أنفسهم فى هذه الميادين فأصبح أئمة الأمصار ورواد الفقه واللُّغة والحديث من الموالى .. وذلك نجاح للدعوة الإسلامية جدير

بالتنويه ، فإن وصول أبناء المستعمرات المحرَّرة إلى هذه المكانة الأدبية العالية شيء مثير حقاً .

أوَ ليس غريباً أن يدخل العربي المسلم إلى أحد المساجد فإذا الذي يؤمه واحد من هؤلاء ؟ وإذا الذي يُفسِّر له القرآن ، أو يضبط له قواعد العربية ، أو يروى له عيون الأدب واحد من هؤلاء ؟ .. ذلك وبنو أُمية لا يملكون إلا التسليم بالأمر الواقع ... !!!

وكما نجحت الدعوة الإسلامية في إقامة كيان ديني ذابت فيه الفوارق بين الأجناس ، فإن الجهاد الحربي مضى على نهجه الأول فاستأنف المسلمون القتال ضد الروم ، وتابعوا مسيرتهم في الشمال الإفريقي - بعد تحرير وادي النيل - حتى بلغوا شواطيء الأطلسي ..

ثم استداروا إلى الجزر التي تنتشر في البحر الأبيض وأخذوا يُحرِّرونها واحدة بعد الأُخرى .

وكان لهم أمل في إسقاط عاصمة الروم نفسها ، فحاصروا القسطنطينية ردحاً من الزمن ولكنها استعصت عليهم ، فما دخلها المسلمون إلا بعد ذلك بستة قرون تقريباً ، لم تخمد خلالها نار الحرب بين التوحيد والتثليث .

إلا أن المسلمين الأيقاظ استغلوا الأحوال السائدة في أسبانيا والفُرقة الاجتماعية التي قسَّمت أهلها فدخلوا الأندلس ، وضموه إلى أرض الإسلام ، ذلك في الغرب ، أما في الشرق فإن المسلمين ولُّوا وجوههم شطر الصين والهند ، ووقفوا على حدود عَوالِم يموج بعضها في بعض ، ويظلها ليل دامس من الخرافات والترهات ، وعبادة الحيوان والجماد .

وكان المسلمون قادرين أن يبلغوا شواطيء المحيط الهادي شرقاً ، وبحر المانش والبلطيق غرباً ، ولكن الجهاز الحاكم في دمشق كان دون المستوى المرموق ، فلم يُحسن الإفادة من العبقريات التي تمهدت له ، بل شل همتها وأبطل حركتها ، حتى قال القاسم بن محمد الذي كان يريد فتح شرق آسيا كله :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر !!!

* * *

• الدعوة وأحوال الدولة الداخلية :

قلنا : إن أشخاص الحاكمين الأمويين دون مستوى دولة الخلافة الراشدة وقد كانت لذلك آثار يمكن تسجيلها في الملاحظات الآتية :

١ - رفض الاعتراف بهذا النظام حزبان كبيران أولهما : الشيعة الذين يعتقدون أن الخلافة حق طبيعي مُقرَّر لعليٍّ وأولاده ، وأن من عَداهم مغتصب ، ليس له حق الطاعة ، والثاني : الخوارج الذين يتعقدون أن الخلافة حق لكل مسلم كفء مهما كان جنسه ، إذا اختير لها وقام بعبئها .. وقد عانت الدولة من الحزبين كليهما ، لكن الجمهرة الكبيرة من المسلمين رضيت بالأمر الواقع ورأت أن تواصل خدمة الإسلام ، في ظل النظام الأموي وإن كان في النفس منه شيء ..!!

٢ - وُضعت على الحريات العامة قيود لم تُعرف على عهد الخلافة الراشد - لقد استكثر رجل أن يقول مسلم لأمير المؤمنين عمر : اتقِّ اللّه .. ولكن أمير المؤمنين رده : دعه يقلها ، لا خير فيكم إن لم تقولوها . ولا خير فينا إن لم نسمعها . !!

أما عبد الملك بن مروان فقال : من قال لي : اتقِّ اللّه . ضربتُ عنقه .. والمرء يعجب لأحوال الناس ، ولعل عبد الملك كان يعرف أن من يقولها له ، مُراءٍ يبتغي الفتنة ، وتقليب الأمور ، وأن الخلفاء الراشدين الثلاثة قُتلوا في أشباه هذه الفتن ..

ونحن لا نعتذر لجبار من الخلق مهما يكن شأنه ، ويسوءنا : أن نقول : إن لوناً من الجبروت الذي يرفضه الإسلام قارن الحكم الأموي وسوَّد صحيفته . ومكَّن نفراً من المستبدين أن يزحموا السجون ، وأن يبُطلوا أخلاق الصراحة والشجاعة عند الكثيرين ، وكان ذلك من أسباب ضياع الدولة في النهاية .

٣ - بدأ التقعر في فهم العقيدة يظهر ، ويضطرب بأصحابه ذات اليمين وذات الشمال ، فهناك مُرجئة يرون العمل كمالاً في الإيمان ، وهناك معتزلة يرون العاصي فاسقاً لا هو مؤمن ولا هو كافر .

وهناك خوارج يرون العصيان كفراً .

كما ثارت خلافات سمجة في قضايا دينية أخرى ، نمتها مجالس الجدل التي قلّما يُطلب فيها الحق بهدوء وتقوى ، وإنما تُخدم بها الأهواء والأحزاب .

ولم يكن رجال الدولة على مستوى البت في هذه القضايا فتركوها ترسو على أي جنب !

٤ - لكن رجال الفقه والحديث والقرآن والأدب واللّغة ، ووراءهم سواد الأمة الأعظم ، اشتغلوا بخدمة الإسلام في ميادينه الصريحة النافعة . وكان جهدهم يشبه نشاط عدة وزارات في عصرنا الحالي فمشت قافلة الإسلام بقوة ، وانسدت ثغرات كثيرة .

وبدأت العلوم الإسلامية تنفتح وتعمق مجراها ، وظهر أعلام كبار في كل فـن ، وازدانت حواضر الإسلام بنهضات فكرية واجتماعية هي أثر مدارسة الإسلام والاستظلال برايته .

٥ - كان التعريب ظاهرة سياسية للخلافة الأموية ، اللُّغة العربية هي اللُّغة الرسمية في القارتين الكبيرتين حيث انتشر الدين ، وهذا تصرف لا شائبة فيه ، بل لا بد من استدامته إحياءً وابقاءً للُّغة القرآن الكريم .

والحكام في هذه الأقطار الفيحاء عرب أقحاح ، وهذا ما نتريث في الحكم عليه ، فإن هناك أعاجم أسلموا وتعرّبوا وكان من الخير دعم الحكم بهم أو التقرب إلى أجناسهم بهم .

وقد كان ذلك من أسباب ضيق الفُرس - مثلاً - وانحرافهم عن الدولة ، وكان إلى جانب مظالم وانحرافات أخرى دافعاً قوياً إلى التماس المخرج في استخلاف الرضا من آل البيت النبوي - كما يقول الشيعة - فهو أفضل من حكام البيت الأموي .

واندلعت الثورة ، وجاء حكم جديد فاجأ المؤيدين والمعارضين جميعاً ، فقد كان الخليفة الجديد من بني العباس ، لا من بني عليّ ، وهكذا قامت الدولة العباسية ، فلننظر إلى أحوال الدعوة في ظلها ...

* * *